

تشسلاف ميلوش:
أتدحرج على موجة

ولد تشسلاف ميلوش في العام ١٩١١، واشتهر في الأوساط الأدبية البولندية في الثلاثينات، باعتباره من الأصوات الشابة، الداعية إلى إحياء وشحن الشعر بمضامين جديدة. وقد اشتغل خلال تلك الفترة في الإذاعة البولندية. عمل في الحرب العالمية الثانية في محطة إذاعة سرية ضد النازي، وانضم بعد الحرب إلى السلك الدبلوماسي في بولندا، التي أصبحت جزءاً من المنظومة الاشتراكية. تفرّد على النظام السائد في بلاده في أوائل الخمسينات، واختار الإقامة في فرنسا، وفي أوائل الستينات أنتقل للعيش في الولايات المتحدة، وبقي فيها حتى وفاته في آب (أغسطس) الماضي. نال ميلوش العديد من الجوائز الأدبية، كانت أبرزها جائزة نوبل الآداب في العام ١٩٨٠، وإلى جانب الشعر كتب المقالات، والرواية، والسيرة الذاتية، كما اشتغل مدرّساً للآداب واللغات السلافية في الجامعات الأميركية.

وقد تركت تقلبات حياته، وما اتسمت به من رحيل، واضطرابات أيديولوجية، وثقافية، أثرا واضحا على أعماله الشعرية والنثرية على حد سواء، حيث تكثرت لديه مجازات ما بعد السقوط، بالمعنى الديني للكلمة، أي بعد طرد الإنسان من الجنة، وهبوطه إلى الأرض. ويجد هذا المجاز دلالات أوسع من خلال مفهوم المنفى الذي يسري في أعماله. كما أن لغته تعبر عن حالات مختلفة من المجرّد إلى الحسي، ومن الفلسفي إلى نثر الحياة اليومية.

محادثة مع جين

دعينا لا نتكلم في الفلسفة، ولنضعها جانبا، يا جين
الكثير من الكلمات، الكثير من الورق، من يصبر على شيء كهذا
أخبرتكم بالحقيقة لماذا نأيت بنفسني
لم يعد ينتابني القلق تجاه حياتي المسوخة
لم تكن أفضل ولا أسوأ من المآسي الإنسانية العادية

لمدة تزيد على الثلاثين عاما نشن المشاحنات على بعضنا
كما نفعل الآن، في الجزيرة تحت سماوات مدارية
نهرب من زخة المطر، وفي لحظة تسطع الشمس ثانية
يصيبني الحرس، يبهرني اللب الزمردى لأوراق الشجر

نفطس في الزيد عند خط تكسّر الأمواج
نسبح بعيدا إلى حيث يكون الأفق محبوبا بشجيرات الموز
وطواحين هوائية صغيرة من النخيل
أعرض حينها للالتهام: لست في مستوى عملي الفني
لا أرغم نفسي على القيام بأعمال كبيرة
بينما كان في مقدوري التعلّم من كارل ياسبرز
ويأن ازدراثي لأراء هذا العصر ينتابه الفتور مع مرور الوقت

أندرج على موجة وأنظر إلى الغيوم البيضاء

أنت محقة، يا جين، لا أعرف كيف أعتني بخلاص روحي
البعض تشمله العناية، والبعض الآخر يحاول قدر ما يستطيع
أقبله، أقبل بما أصابني كنوع من [الحكم] العادل
ولا أدعي وقار حكمة الشيخوخة
ولأن بيتي لا يترجم في كلمات، أختاره في ما هو الآن
في أشياء هذا العالم، الموجودة، ولأنها موجودة تسرنا:
عري النساء على الشاطئ، الاكواز النحاسية لأثدائهن
نبات الخبيزة، زنبقة حمراء، يسرني التهام عصير الجوافا بعيني
وشفتي، ولساني، وعصير برقوق أفروديت
الروم بالثلج والعصير، والنباتات المتسلقة
في غابة مدارية حيث الأشجار تقف على أطراف جذورها.

الموت، تقولين إن موتي وموتك، اقتربا أكثر فأكثر
لقد عانينا الكثير وهذه الأرض الفقيرة لم تكن تكفي
أرض حدائق الخضراوات الأرجوانية - السوداء
ستبقى هنا، سواء نظرنا إليها أم لم ننظر
والبحر، كما يفعل اليوم، سيتنفس من أعماقه
وأنا أزداد ضآلة، أختفي في المساحة الهائلة، لأصبح حراً أكثر فأكثر.

١٩٩١ غوادلوب

||

قصيدة لنهاية القرن

عندما كان كل شيء على ما يرام
واختفت فكرة الخطيئة
وكانت الأرض متأهبة
في سلام تام
للاستهلاك والفرح
بلا مذاهب ولا يوتوبيات
بحثت، لأسباب غير معلومة
محاطاً بكتب الأنبياء وعلماء اللاهوت
بالفلسفة والشعراء
عن جواب
بحثت عابساً ومقطب الجبين
مستيقظاً في الليل، ومدمماً بكلمات في الفجر

ما أصابني إلى هذا الحد
كان مخجلاً نوعاً ما
وكان الكلام عنه في العلن
لا يدل على لباقة أو حرص
وربما بدا انتهاكاً لسلامة بني البشر

ولكن ذاكرتي، لسوء الحظ، لا تريد مفارقتي
وفي الذاكرة كائنات حية
لكل منها عذابه الخاص
وموته الخاص

وذعره الخاص

لماذا البراءة، إذأ
على شواطئ فردوسية
وسماء معصومة من الخطأ
فوق كنسية الصحة العامة
ألأن ذلك حدث منذ زمن بعيد؟

إلى رجل صالح
- كما تقول الحكاية العربية -
قال الله بنوع من المكر
« لو أنني كشفت للناس
أي نوع من الخطاة أنت لما مدحك أحد منهم »

« وأنا » قال الرجل الصالح
« لو قلت للناس عن مدى رحمتك
لما خافوا منك ».

لمن أتوجه الآن
بشأن تلك المسألة المظلمة
المصنوعة من الألم والذنب، أيضا
والكائنة في صميم بنية العالم
سواء، هنا، على الأرض
أو فوق في الأعالي
لا يمكن لأي قوة إلغاء السبب والنتيجة

لا تفكر، ولا تتذكر
الموت على الصليب
ورغم أنه يموت كل يوم
الواحد، الممتلئ بالمحبة
إلا أنه يقبل، ويسمح، دون حاجة لذلك
بوجود كل تلك الأشياء
بما فيها مسامير التعذيب

محيّر تماما ، وملتبس
من الأفضل التوقف عن الكلام عند هذا الحد
هذه اللغة ليست للناس
تبارك الفرح
تبارك المحصول والحصاد
حتى لو لم ينعم جميع الناس بقدر متساوٍ من الطمأنينة

بيركلي

||

في وارسو
ماذا تفعل، هنا، أيها الشاعر،
بين أنقاض كاتدرائية سانت جون
في يوم ربيعي مشمس؟

بماذا تفكر في هذا المكان
حيث الريح التي تهب من [نهر] الفستولا
تبعث غبار الأنقاض الأحمر؟

لقد أقسمت ألا تكون النادب في الجنازات
ألا تلمس، أبدا، الجراح العميقة لشعبك
لكي لا تجعلها مقدسة
بتلك القداسة الملعونة
التي تلاحق الأحفاد على مدار أجيال

لكن نواح انتيغونا الباحثة عن أخيها
أقوى من طاقة الاحتمال، والقلب
حجر يطوي، كالحشرة، ذلك الحب الأسود
لأكثر البلاد تعاسة

لم أرد أن أحب إلى هذا الحد
لم تكن هذه خطتي
لم أرد أن أشفق إلى هذا الحد
لم تكن هذه خطتي
قلمي أخف من ريشة العصفور الطئنان

وهذا الحمل ثقيل عليها
كيف أعيش في هذا البلد
حيث يصطدم الماشي بعظام لم تدفن بعد لواحد من الأهل؟

اسمع أصواتاً، أرى ابتسامات
ولا أتمكن من كتابة شيء، خمس من الأيدي
تقبض على قلبي وتأمرنني بكتابة قصة حياتها وموتها
ولكن هل خلقت لأكون النادب في الجنازات؟
أريد الغناء في الأعياد
الذهاب إلى الغابات الخضراء التي كثيراً
ما أخذني إليها شكسبير
اتركوا للشعراء بعض الفرحة
لئلا يهلك عالمكم

من الجنون العيش بلا بهجة